



وبهذا يمكننا أن نتوصل إلى تمثيل ماضى شعب ما ، وتمثيل تطور المواد التى تألفت منها حضارتها

هنالك مواد مختلفة : منها العمارة والأدب واللغة والتعليم والاعتقاد نستطيع أن نستفيد منها فى بناء تاريخ الحضارة وتكوينها ، ولكن من النادر أن نملك عليها جميعها . وفى مثل هذه الحالة نجتزئ بما نقدر أن نجعله منها لتجسد المفقود ، وذات النظرية التى تسمح لنا بأن نعرف حيواناً ما بمجرد اطلاعنا على قطع من هيكله العظمى هى النظرية التى يجب أن نفرضها فى التاريخ ، إذ أن مظهر بعض الصفات يستلزم دائماً وجود صفات أخرى

على أن كل هذه المواد التى نحددها قد تكون ناقصة فى بعض الحالات بالنظر إلى الوضوح ، فالعلم الحديث سيرك مواد أكثر صحة ودقة للجيل القادم . وقد يسهل التنبؤ بأن مؤرخى المستقبل سيكتبون كتباً فى التاريخ تختلف عن كتبنا فيه ، وفى تاريخ حضارة القرن العشرين سيكون الموضوع خاضعاً بدون ريب لعنوان الأثر مرفقاً برسوم وخرائط وخطوط نافرة ، تمثل كل أطوار الحوادث الاجتماعية ، وأن عظمة ما ، وقوة ما ، وبقاء ما ووزناً ما نستطيع أن نستشفه خلال خط مرسوم أو سطر مرسوم وليس هنالك حادث نفسى أو اجتماعى مهما كان مركباً يفترض بأنه لا يمكن اعتباره كقيمة رياضية يمكن حلها عددياً ، وإنما يكفى أن نجد له فى مواده الضرورية مقياساً ، فإن علم تقويم البلدان هو أقل العلوم الحديثة تقدماً فى طريق التكوين . والذى علمنا إياه هذا العلم يسمح لنا بأن نستكشف ما سوف يعلمنا إياه فى المستقبل . فانتاج بلد وانفاقه وغناه وحوادثه والقابلية الخلقية والخلقية للذرية التى تقطنه ، واختلاف عواطفها ومعتقداتها وتأثير القائمين عليها ، كلها أشياء قد جلاها لنا القومون بأعداد يجمعونها اليوم

ونحن نرقب هذا الجيل القادم الذى يتبدل فيه المشاحنة التاريخية بصور وخرائط ومعارض هندسية تمثل حالة كل الحوادث الاجتماعية وأطوارها المتبدلة ، وإنما يجب الجهد الكثير فى انتقاء الصور الأكثر وضوحاً من الصور التى تركها لنا الماضى ، ومن هذه المواد التى أحصيناها نمسك المواد الضرورية التى تقدم لنا صورة واضحة شاملة للحضارات الغابرة وتاريخ تكوينها ، ولكى نستطيع أن نخرج هذه المواد إلى حيز العمل وجب علينا أن ندرس هذه البقيات التى تركتها هذه الحضارات فى مواطنها

التاريخية . وحذار أن نطلب أكثر من هذا إلى المؤرخ

على أن العمل مع هذا هو من العسر بمكان لما يقتضيه من الاعتناء . فالمواد التى تسمح لمؤرخ أن يضم منها صورة لحضارة ما يمسر عليه جمع أطرافها . والأعسر من ذلك أن يخرج بها إلى حيز العمل . إذ ليس فى تسلسل ذرارى الملوك ، ولا فى قصص المعارك والحروب التى تشكل لب التاريخ المدرسى نستطيع أن نبحت عن تلك المواد . وإنما نجدتها فى درس اللغات والفنون والآداب والمعتقدات والتعاليم السياسية والاجتماعية لكل عصر من العصور . وأما المواد الغريبة لحضارة ما فلا يمكننا أن نعتبرها نتيجة هوى الناس أو القدر أو إرادة الآلهة ، ولكنها وليدة الحاجة والفكر والعاطفة فى الدرارى التى تجلب فيها ، فإن ديناً ما وفلسفة ما وأدباً ما وفناً ما قد يحتوى على أشكال ثابتة من الشعور والتفكير ولا يحتوى على غيرها . وبما لا جدال فيه أن الأعمال والآثار تلو علينا أفكار أصحابها . إنها تقرأ علينا أفكارهم وتسمح لنا بأن نؤلف صورة ذلك العصر . ولكن هذه الصورة تبقى ناقصة فيجب علينا أن نوضح تركيبها ، لأن الشعب الذى يُدرس فى لحظة معينة لم يتكون فى وثبة واحدة . وإنما هو وليد ماض طويل بعيد ، ووليد مؤثرات مختلفة للبيئة التى نشأ فيها وخضع لها ، ولذلك وجب علينا أن نرجع إلى ماضى ذلك الشعب حتى يمكننا تحليل وضمه الحاضر . وبالإمكان أن ندعو دراسة هذا التكوين القائم من مواد مختلفة متنوعة يتألف منها المجتمع بعلم الجنين . وهذه الدراسة تفدو قاعدة راسخة للمؤرخ فى عمله ، كما هو الحال فى أن علم تشكل الكائنات الحية أصبح اليوم أمثناً قاعدة وأصدق مرجع للماء طبقات الأرض

كائنات حية ومجتمعات يجب أن تمر بتطور بطيء يبدل مظاهرها الخارجية قبل أن تصل إلى حالات الكمال ، وهذه المظاهر الخفية لا يوحىها علينا التاريخ دائماً . فكم من حدود لهذه الظاهر قد توارت حالياً ، وإنما الملاحظة وحدها تسمح لنا بأن نستدعى الحدود الضرورية ؛ وكالكائنات الحية نرى أن كل المجتمعات لم تبلغ بذات الأجيال انقلابها ، وأنت ترى أن كثيراً منها لم يجتزئ بعد هذه المراحل التى انتهى العرب من اجتيازها ، هذه المراحل التى تمثل صورة الماضى الثابتة . وقد يستطيع السائح فى أرجاء الأرض أن يرى المجارى الرئيسية أو المراحل الأساسية لتاريخ الانسانية منذ العهد الحجري حتى العهد الحاضر

وقد يقال بحق : إن مائة صفحة مكتوبة لا تساوى صورة تامة بل قل — ولا غلو — ولا مائة كتاب

عند ما نعمل على تحديد الأشكال نجد أن الكلمات في أية لغة غير كافية . ولا سيما إذا كان الموضوع يحس الشرق حيث تكون الصور ضرورية . هنالك بالميون وحدها تمكن معرفة مناظره ومعاينه وآثاره الفنية والدرارى المختلفة التى تولت أمره ؛ والأسلوب الذى بتصويره لن يعطى أبداً ذلك التأثير الذى يعطيه مشهد الأشياء من حيث صورتها الأمانة

ولكن هذه الآثار وهذه المشاهد والأعمال الفنية وأشكال الدريات وفصول الحياة إنما يبنى أن يذهب الإنسان بمبدأ فى درسها ، وإذا أراد درسها بأمانة فإن الصورة وحدها تستطيع أن تعطى ، ومن الصورة تأخذ الصورة الأمانة . وإن أياماً عمدها أيام لا تسمح للفنان الماهر مهما ذهب بأن يبلغ الاتقان الذى تحققة الصورة فى ثوان معدودة

إذا أريد الاختصاص فقط بتمثيل العمارات فإن فناناً ماهراً يكون له الزمن مادة لا قيمة لها قد يصل إلى أن يتنازع مع الصورة ولكن إزاء ألوف الفصول من الحياة الشاملة التى تؤلف جزءاً كبيراً من وجود الشعب لا يمكن أن يثار نزاع حولها . فالصورة الحقيقية هى وحدها القادرة على تصوير الأشياء فى حركاتها بأمانة من شارع حى ومن جواد يمدو خيلاً ، ومن موكب عرس وغير ذلك . ومن عهد قريب شاعت مذاهب جديدة تدعوا إلى السياحة والرحلات وقد نفذت هذه المذاهب للمرة الأولى فى هذا الأثر . وقد لعب الرسم دوره فى كل شيء وعمل على أن يظهر بأمانة من عمارة ، ومن أكوام ، فالصورة الشمسية يجب أن تحمل محله الآن ، والصورة فى كتب العلم والتاريخ والأسفار تكون الوسيلة الوحيدة ، ولقد تكون شاقة فى الأسفار النائية ، ولكنها ضرورية لكل مسافر ولكل عالم

فإذا كانت الصورة العامة بما تضمنت من عوامل تعطى القارى صورة واضحة عن الزمان الذى قامت فيه فالغاية إذن أصبحت محققة والهدف المنشود موجوداً

فيل هنرارى

« إنتهت المقدمة »

\*\*\*

سننشر بمش فصول من الكتاب تدل على إيمان الرجل بمحضارة الغرب والعمل على إبرازها بإيمانه القوى وبيانه الساطع

فإن مشهد الأشياء وحده يمكن أن يعطينا من ماضى ذلك النيب مالا يمكن أن نراه غيره أن يعطيه . والعلوم الطبيعية والاجتماعية لا يمكن أن يتعلمها الإنسان مجردة فى الكتب ، ولا سيما إذا كانت المسألة الشعبية كسألة العرب الذين تعددت آثارهم فى البلدان التى ازدهرت فيها حضارتهم وشعت مدنياتهم . فعند ذلك يجب أن ندرس بينهم درساً لازماً لا مندوحة عنه . وليس هناك إلا الرحلات والأسفار تنقذنا من نير الآراء المصنوعة والأوهام الثقيلة الموروثة . وسيجد القارى الأصول التى طبقناها هنا بصورة موجزة . وهذه الأصول ستعود القارى إلى أن يتجرد من الآراء المدرسية فى أكثر المسائل التى تمس الشرقين من ديانة محمد صلى الله عليه وسلم والرق والخروب الصليبية والعلوم والمعارف والفنون وأثر العرب فى أوروبا وغير ذلك ...

— ٣ —

على أن البقايا التى تخلفت من حضارة العرب هى بقايا كثيرة العدد ، كافية لأن ندرسها بأجزائها الضرورية . إننا سنأخذ أكثرها من الآثار الفنية والأدبية والعلمية والصناعية والاعتقادية ؛ ومن بين هذه الآثار كلها ستكون أكثر استيحاء من الآثار التصويرية ، فهى بشكلها الملموس تكلم عقولنا بوضوح . فيها نجد التعبير الصادق عن الحاجات والمواقف والأجيال التى ولدت فيها ، وفيها نحس أثر الذرية والبيئة إحساساً جلياً . فى آثار عصر ما مهما كان نوع منتجاته استطاع استقراء ذلك العصر استقراء تاماً . فقايلة فى العصر الحجري ، وهيكلم مصرى ، ومسجد أو كنيسة ، وملجأ قطر ، وغدغ غانية ، وحسام ذو قبختين ، ومدفع ثقيل الوزن ، فى كل هذا ما هو أفصح بياناً من المناقشات . ولوصف الآثار الفنية للشعب يوجد طريقة واحدة هى تقديمها ؛ فإن صور ( البارتنون ) والحمام وقيوس فى نظرنا أفضل من مجموعة كتب يكتبها كل مؤلفى العالم عليها . ولاعتقادنا بأهمية هذه الصور التى تنقل إلى العقل الصورة الكاملة للعصر الذى قامت فيه عمدنا إلى أن نلنقط هذه المنتجات ؛ والقارى الذى يلتفت فقط إلى الصور المرسومة فى هذا الكتاب قد يكون أكثر علماً بمحضارة العرب وأطوارها التى تحملها فى أقطار مختلفة من قارى قصر اطلاعه على مطالعة الكتب التى تبحث عنها ، وإن وضع الآثار تحت الميرون يغنى فى الوقت ذاته عن الأوصاف المسببة التى لا تعطى أية فكرة عن الأشياء التى تزعم أنها تصفها